السيد جمال الدين الافغاني

في مذكرات شاعر الترك الاكبر عبد الحق حامد بك

نشر شاعر الترك الاكبر عبد الحق حامد بك مذكراته في جريدة (وقت) التركية التي تطبع في القسطنطينية . وقد جاء في خمسة مواضع منها كلام عن قائد النهضة وباعث اليقظة السيد جمال الدين الافغاني ، فآثرنا أن لا يفوت قراء الزهراء الاطلاع عليه

قال عبد الحق حامد بك : لما حضر السيد جمال الدين الى لندن للمرة الاولى لم أكن فيها ، ولم أكن أعرفه . وإنما عرفته في جيئته الاولى الى القسطنطينية فألممت به إلماماً . وفي زيارته الثانية للندن اجتمعت به فأحببته الحب كله ، وعرفته المعرفة الحقة ، وجددت شرف صحبتي له

لست أدري لماذا كان بعضهم ينسب الى إيران هذا العلامة الأفغاني السيار . الديار بين القسطنطينية والقاهرة وفي كثير من بلاد أوربا وآسيا . وعندي أن ذلك الانسان الكامل لم يكن ايرانياً ولا أفغانياً وانما كان رجل الدين والايمان ، والعلم والعرفان . وما كان بابياً ولا وهابيا كما يقال وانما هو واعظ الانسانية الفذ ورسول شخصيته وحواري نفسه . وأذكر الآن أن كلمة غير مألوفة صدرت منه في زمن السلطان عبد العزيز بعثت له الغم والحزن وأبعدته عن القسطنطينية الى القاهرة ومنها الى الهند ومن الهند الى فارس ، ونجا ثمة من اغلال الاستبداد فجاء الى ديار الحرية مضمراً للشاه ناصر الدين عاطفة انتقام عادل ، وما زال به حتى قطع سلسلة أنفاسه التي كان يدعوها سلسلة المظالم

وبينما كان يلقي خطبه ومحاضراته في دار الفنون بالقسطنطينية ، وفي الجامع الازهر بالقاهرة ، وفي أنجمن اسلام بمدينة بومبي ، وفي سجون طهران وشوارعها

فان كلمة غير مألوفة صدرت منه في احدى تلك الخطب ذكر فيها النبوة في جملة الصناعات فكان ذلك سبباً لقذفه من بلد الى بلد ، وما برح غير ذي وطن حتى اتخذ جنة الخلد وطناً . ولم يدرك سامعوه يومئذ ان النبوة من سامى صنع الله صانع الملكوت ، وبها تحولت الاوثان أبداناً ، وصارت الأصنام أناماً . وهل الانقلاب الاسلامي العجيب الا مما صنعه الله على يد رسوله الاعظم صلى الله عليه وسلم ؟

كنت وأنا في لندن على صلة دائمة بالسيد جمال الدين ، وكان يرى أن ناصر الدين شاه أشد الملوك استبداداً وجوراً ، أما السلطان عبد الحميد فاذا لم يكن شيئاً فهو خليفة على كل حال . وكان السيد يسكن غرفة علوية صغيرة Mansarde من منزل معد للأجرة في حيّ متطرف من أحياء لندن ، ففيها يطالع ويكتب ، وفيها يأكل وينام ، ورغم فاقته فانه كان يُرى في سعادة وراحة . واذا نزل من غرفته اجتمع ببعض المستشرقين وحادثهم وحادثوه في الامور السياسية والفلسفية . وكان خوجه تحسين وشقيقي نصوحي بك من أقرب الاصدقاء الى هذا العلامة الحكيم أو من حواريه . وكان الاستاذ اذا نظر الى السماء من نافذته في تلك الغرفة الشبيهة بالمرصد ربما رأى خياله بين النجوم ..

ولم يكن جمال الدين حسن الرأي في سفيرنا رستم باشا . وقد اتفق مرة أنه عجب لعدم وجود السفير في موكب جنازة لبعض العظماء ، فقال لى ساعتئذ :

ـ حتى متى يمثل الدولة العثمانية في هذه العاصمة ذلك العجوز الخليع العذار الذى وصلت احدى قدميه الى القبر ؟

والذى كنت أعلمه أنا عن رستم باشا أنه عجوز قوي البنية يخدم منصبه لاجل دولته ويخدم دولته لاجل منصبه . ولكن ، نعم ولكن ، لم يمنعه ذلك مرة من أن يقول للمسيو دوستال سفير روسيا الذي جاء لزيارته :

ـ انهم أرسلوني بهذه الوظيفة العظيمة الاهمية لان الباب العالى أصيب

بقحط في الرجال

وانما كان اسيد سيء العقيدة برستم باشا لان السفير كان يرى نجاة الدولة العثمانية على يد الانكليز ، والسيد يرى ذلك مما ينافي فكرة الجامعة الاسلامية

واستدعى الشيخ ابو الهدى الصيادي السيد جمال الدين الى القسطنطينية بإرادة سلطانية . فقال لى السيد انه لا يستطيع الآن أن يلبي هذه الدعوة انتظاراً لما يتوقع حدوثه في طهران . ثم سألني كيف يستقبلونه في العاصمة العثمانية فيما لو حل الوقت المناسب لذهابه اليها . فابتسمت وقلت له :

ـ هنا لك أحد أمرين : النفيُ والاجلاء ، أو التقريبُ والاعلاء

وكان ناصر الدين شاه قد عزل ملقوم خان سفير ايران في لندن لاختلاف بينهما في الرأي . فاتفق معه السيد جمال الدين على اصدار جريدة فارسية اسمها (قانون) عملت على مناهضة ناصر الدين شاه ووزيره الاعظم . وبما انها تدعو الى الجامعة الاسلامية فقد كانت مؤيدة لمقام الخلافة ، وكان هذا يقتضي أن لاتكون هذه الجريدة مغضوباً عليها كثيراً في ديارنا . ولما سقط الوزير الاعظم الايراني عين زميل السيد في تحرير (قانون) سفيراً في روما لحكومته . ثم ذهب السيد الافغاني الى الاستانة ، وفي ظني ان ذلك كان بعد مقتل ناصر الدين شاه

لست أدري من ذا الذي شجع السيد جمال الدين ـ فجأة ـ على السفر الى القسطنطينية . فقد جاءني في يوم من الايام مودّعاً ، فخرجت في اليوم التالي لتشييعه . وقال لي عند الافتراق :

ـ نعم ، اني ذاهب الى دار الخلافة . ولا أزال أذكر كلمتك في الاحتمالين فاما التقريب والاعلاء ، ولعله يكون وسيلة لخدمة عامة أقوم بها اذا حفت بي ظروف معقولة . واما التغريب والاجلاء ، وهذا ما لا أبالي به ، وأنا قد تعودت الاحتفاظ بمبادئي في السجون والمهاجر . قد يسجنون شخصي وأما فكري

افليس في استطاعتهم أن يسجنوه . ولكن لماذا يُنكب جمال الدين هناك وهو الذي يسعى لخدمة الاسلام . وخدمةُ الاسلام ينبغي أن تكون من أعظم ما يقصد اليه الخليفة ؟

قال السيد كلمته هذه ، وذهب إلى العاصمة العثمانية وهو على هذه النية

ولما عدت الى القسطنطينية علمت أن السيد يسكن قصراً في حي (نشانطاش) فذهبت لزيارته غداة وصولي . انه إنتقل من الغرفة العلوية في لندن الى قصر في القسطنطينية ، ولكن هذا الشخص المحترم كان هو وقصره في نطاق الحصار . ودخلتُ عليه غرفته وأنظار محاصريه من الجواسيس تتعقبني بلحظاتها ، فوجدته محاطاً بالمراقبين عليه ، ولكنّ النشاط والهمة لم يفارقاه . وكان يتظاهر بالضحك والابتسام احتياطاً ، غير أني استطعت أن أكتشف ما تكنّه نفسه وراء ذلك من ضيق ساحق . وانه لعذاب أليم أن يتسلى المرء بمصاحبة من لا يريد صحبته مجاملة للبيئة وذوي السلطان . وكان عند زيارتي له كأنما يعاتب زائريه بما يجاملهم به من كلمات الايناس ، وينظر لي نظرات ذات معاني كثيرة

وأردت غير مرة أن أستأذنه بالخروج فكان يستمهلني الى أن تفرق مَن عنده وبقينا منفردَين ، فقال لي جوابا على أسئلة وجهتها اليه :

« ليس السلطان عبد الحميد جبانا ، ولكن تقارير الجواسيس التي يطرونه بها ينطوي كل واحد منها على علامة تنذر بأمر مخيف ، فهي محاولة اغتيال ، وهي حكم بالاعدام . ان السلطان عبد الحميد لا يخاف الموت ولكنه يخاف القتل بيد السفلة والانذال كما قتل السلطان عثمان الفتى والسلطان سليم الثالث والسلطان عبد العزيز الذي لا يعتقد السلطان بأنه مات منتحرا

« ان حرصه على السلطنة منبعث عن مصلحة الامة أكثر مما هو منبعث عن محبته لنفسه . وأظن أنه لو علم بأنه سيخلفه على العرش رجل كفء وأنّ خلعه

لا يؤدي الى القتل لما استنكف من الخلع ، وكان ينتحى برضاه ، لكنه لا يرضى بأن يكون سلطانا مخلوعا موصوماً بالتهم . وهو يرى أن السلطنة والخلافة هبة الهية كالحياة ، ويقول لماذا انتازل عنهما ؟

« ومما يؤسف له أن الملتفين حوله يستفيدون من اخلاقه ، ويكتسبون من خوفه شجاعة . وأستطيع أن أقول ان السلطان المسكين قد صار جبانا لطول ماعاش في الخوف من الاغتيال . كنت عنده يوما وهو يقرأ تقريرا من مجلس الوزراء ، وفيما هو يسألني رأيي في بعض الجمل الواردة فيه جيء بتقرير من تقارير الجواسيس فترك تقرير مجلس الوزراء ـ وأظنه تركه على أن لا يعود اليه ـ وانكبّ على تقرير الجاسوس يقرأه المرة بعد المرة ، ويداه وشفتاه ترتجف . فأشفقت عليه وسألته عن هذه الورقة ـ بتجلد تمازجه الرأفة ـ فقال :

ـ لاشيء . . وماذا تكون . انها تنبيء بمؤامرة كاذبة

فلم أتمالك ان قلت :

ـ وما دامت كاذبة فخيرا لو تُهمل

فقال السلطان : ـ اذا لم نسمع أكاذيبهم لم نصل الى ما قد يصدقون فيه

« نعم ، لقد برهن السلطان عبد الحميد على عظمة نفس لما امتنع من أن يسلمني الى الحكومة الايرانية التي زعمت مراراً أنني ايراني من رعاياها ، فكان دائماً يرد طلبها . وأنت تعلم أنني لست إيرانياً ، ولست من رعايا دولة من الدول ، انما أنا واحد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم

« أراد السلطان عبد الحميد أن يقلدني الاوسمة ذات الدرجات الرفيعة وأن يلقبني بألقاب الرتب العالية ، فلم أوافقه على ذلك وكنت أقول له :

ـ ان عطفكم عليّ واهتمامكم بي رتبة لا تعلوها رتبة

« وكنت جالساً أمامه مرة وجهاً لوجه حول منضدة نتبادل الحديث ،

والحاج علي بك واقف على قدميه . فعاد السلطان الى الكلام على الرتبة والوسام، فوضعت يدي على المنضدة وقلت :

- يرى جلالة مولانا كيف أن عبدهُ الحاج علي بك واقف على قدميه في الحضرة ، بينما جلالته قد أذن لي بالجلوس . ولست أرى مقاماً أعلى من هذا المقام الذي يتمناه جميع عبيد جلالتكم

« ولم يكن للسلطان ثقة بأحد حتى تكون له ثقة بي . فهو يظن أنه ما من رجل الا وفي جيبه مدية ، وفي نفسه أفعى ، وفي فكيه أنيابها . ويرى في أصدق القول سمَّ الكذب ، ويذهب الى أن في قصره فخاً لاقتناصه وكميناً لاغتياله . الى هذا الحد كان السلطان عبد الحميد عجيباً

« على أنه كان كريماً مضيافاً . وكانت له تجارب الحاكم الذي عاش ستمائة سنة وكل ما فيه يدل على الاصالة والادب ، وترى أمارة ذلك في يديه وفي رجليه وفي كل جسمه ، وفي نظراته وجلسته ونهضته ومشيته وحديثه . فهو كأبي الهول يدل على العراقة في القدم . ولا أزال أذكر كلمتك : فان أنفه أيضا سلطاني

« وكل الذين يدخلون عليه من رجال السياسة يبهرهم بأدبه وكياسته وذكائه ، لانه أمضى منهم سياسة ودهاء . وهو يدير السياسة الخارجية ادارة لا بأس بها ، وله بعض النفوذ في أوربا ، فاذا دارت مفاوضات مهمة حول حادث دولي يحسبون لما يقوله حسابا . فهذا كله مظهر من مظاهر الدولة أو أثر من آثار الدهاء . وفي قصره الصالحُ والطالح من الحاشية فالطيبون ليس عددهم قليلا ولكن السلطة لأهل الشر منهم . ولذلك تسير السياسة الداخلية من سيء الى أسوأ . والسلطان عبد الحميد ـ على كل نقائصه ـ جعل نفسه ملاذاً للخاصة والعامة . واذا قلت لك ان الخوف مَهلكة فأنت تفهم ما أعني

« أما موقفي أنا فمضحك : لي قصر وخيل ومركبة وخدم وحاشية . وقد

لحق بي السلطان مريدين كثيرين ولعله لاحظ أني شيخ فأطرقني بهم. ودراويشي هؤلاء يطوفون بمنزلي ليلا ونهاراً ، واذا ركبت عربتي لا يقصرون في ملاحقتها. ولكني أعترف بأنهم لايقلقون راحة شيخهم . وهذه الحال وان تكن بنفسها مزعجة للعواطف ومثيرة للفكر الحر فاني أتحملها لأن لكل شيء في هذا العالم نهاية « سأذكرك عند السلطان أنت ورستم باشا في أول مقابلة »

* * *

واجتمعت بالسيد جمال الدين مودعا عندما ازمعت العودة الى لندن، فرأيته في يأس وضيق صدر . وكان قد تقرر ارساله الى بعض الاقطار لتوثيق رابطة الاخاء الاسلامي ، ثم عدل السلطان عن ذلك في آخر ساعة ، وكان عدوله سبب عداء بين السيد والشيخ أبي الهدى . وقال لي السيد :

« انى لما كنت أسكن الغرفة العلوية في لندن كنت أستطيع خدمة أمتي أكثر مما أستطيعها هنا . وكلما مرّ علي الوقت هنا أزداد يقينا بأنني لن أعمل شيئاً »

وكانت قد بدت فيه يومئذ أمارات مرض السرطان ، فكان هذا أيضا مما أزعجه ، غير أن قلقه المعنوي كان أشد عليه من خوفه على حياته . فودعته بحزن شديد وذكريات لاتنسى

وبعد وصولي الى لندن انقضّ عليّ خبر وفاته انقضاض الصاعقة . وكأنه لما لم يجد الحق على اديم الارض صعد الى السماء ليقترب من عرش رحمة الحق سبحانه . وقد دفنوه بالقسطنطينية في مدافن (ماچقه) فأراد الله لي بعد ربع قرن من وفاته أن أتخذ داراً في هذا الحي لأكون على مقربة من جسم هذا الرجل الروحاني

ومن الغريب أن السيد الذي احتُفل بتشييع نعشه احتفالا سلطانيا لا يعلم أحد قبره على التعيين ، ويقال انه أوصى بأن يكون قبره داراً اتباعا للسنة النبوية . فهو اليوم لا زائر له الا روحه ، ولا أثر له أعظم من ذكرى كماله